

الباب الرابع والعشرون

الهلبية والشرق

الفصل الأول

الإمبراطورية السلوقية

إذا انتقلنا من أرض اليونان الأصلية مجتازين بحر إيجه إلى المستقرات اليونانية في آسية ومصر أذهشنا أن نجد فيها حياة جديدة مزدهرة ، وأدركنا أن العصر الهلنستي لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية بل شهد انتشارها . ذلك أن طوائف في إثر طوائف من الجنود والمهاجرين اليونان أخذت تتدفق على آسية ، وزادت فتوح الإسكندر من ضخامة هذه الطوائف بما أتاحت للمغامرات اليونانية من فرص وما مهدت لها من سبل جديدة .

وكان سلوقس الملقب « بنيكاتور » Nicator (المظفر) يمتاز من بين قواد الإسكندر بالشجاعة ، وقوة الخيال ، والكرم الذي لا حد له . وحسبك دليلاً على هذا الكرم أنه وهب زوجته الثانية استرتنيسي Stratonice الحسناء لابنه دمتریوس لما عرف أن الغلام قد افتتن بها . وغضب أنتجونس الثاني حين جعلت بابل من نصيب سلوقس فزحف بجيوشه ليستولى على جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكن سلوقس وبطليموس هزماه عند غزة (٣١٢) . وكانت الأسرة السلوقية تعد هذه الحادثة مبدأ لتاريخ الإمبراطورية السلوقية والعصر الحديدي ، وهي طريقة في التاريخ بقيت في غرب آسية إلى ظهور الإسلام . وضم سلوقس تحت لهاته عدة ممالك وثقافات قديمة هي عيلام ، وسومر ، وفارس ، وبابل ،

وأشور ، وسوريا ، وفينيقية ، وشملت آسية الصغرى وفلسطين في بعض الأحيان ، وأنشأ في سلوقية وأنطاكية عاصمتين للملكه كانتا أعظم ثروة وأكثر سكاناً من أية مدن عرفناها في بلاد اليونان الأصاية . واختار لسلوقية موضعاً قرب موضع مدينة بابل القديمة التي شيدت فيه بغداد فيما بعد ، لا يبعد إلا قليلاً عن ملتقى نهر دجلة والفرات ، وكان هذا الموضع من أصلح المواضع لاجتذاب التجارة المتبادلة بين أرض الجزيرة والخليج الفارسي وما وراءه . ولم يكده يمضي عليها نصف قرن من الزمان حتى بلغ عامها ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، كانوا خليطاً من مختلف أجناس آسية تسيطر عليهم أقلية يونانية(*) . وكان موقع أنطاكية على نهر العاصي شبيهاً بموقع سلوقية ، ولم تكن تبعد عن مصبه بعداً يحول دون وصول السفن المحيطية إليها ، ولكنها تبعد عنه بعداً يجعلها في مأمن من هجوم الأساطيل المعادية ، ويمكنها من استغلال حقول وادي النهر الغنية ، ومن اجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشبهالجزيرة وسوريا . وفي هذه المدينة شاد الأباطرة السلوقيون المتأخرون قصورهم ، وظلت المدينة تنمو وتزدهر حتى صارت في عهد أنطيوخوس الرابع أغنى مدائن آسية السلوقية، تزينها المعابد والأروقة المعقدة ، ودور التمثيل ، وساحات الألعاب الرياضية ، والمدارس ، وحدائق الأزهار ، والشوارع الواسعة ذات المناظر الرائعة ، والبساتين الجميلة ومنها حديقة دفي Daphne التي طبقت الخفافيقين شهرة ما بها من أشجار الغار والسرو ، والفوارات والحدادول . واغتيل سلوقس الأول في عام ٢٨١ ، بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام خمسا وثلاثين سنة كسب فيها قلوب شعبه . وأخذت دولته بعد موته في التفكك ،

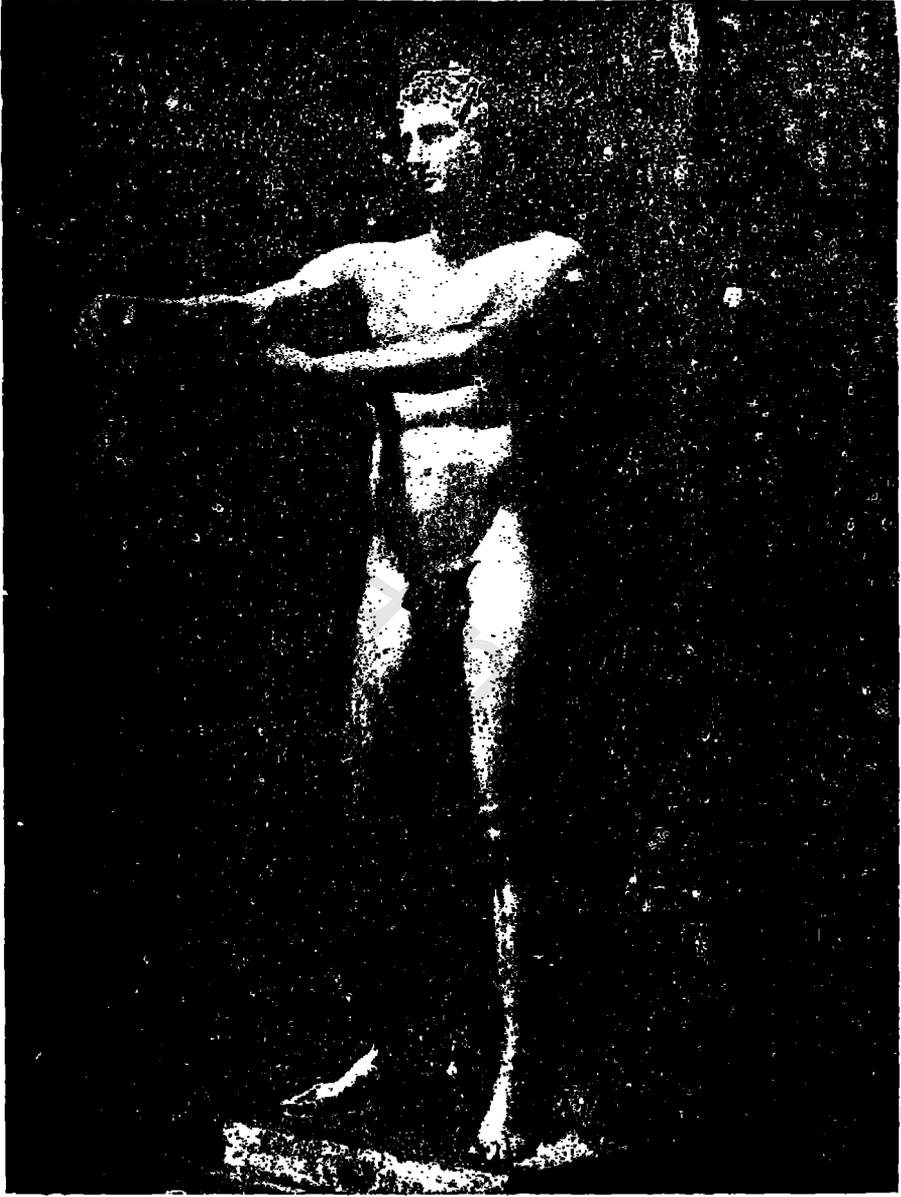
(*) وقد استخرج الأستاذ لروي وترمان Leroy Waterman من هذا الموضع في عام ١٩٣١ الراسا تدل على أن رجلاً من أغني رجال سلوقية قد ظل يتهرب من أداء الضرائب خمسا وعشرين سنة(١) .

تمزقها الاختلافات الجغرافية والعنصرية ، والتنازع العنيف على العرش ،
وغارات البرابرة من كل صوب . واستبسل أنتيوخوس الأول سوتر Soter
(المنقذ) في حرب الغالين ؛ وعاش أنتيوخوس الثاني ثيوس (الإله) ، عيشة
الإدمان المستمر ، كأنه أراد أن يثبت مرة أخرى ما تعرض له البلاد ذات
الحكومات الملكية المطلقة من خطر شديد ؛ وبدأت زوجته لأوديسي Laodice
سلسلة الدسائس والمؤامرات التي مزقت البيت المالك شر ممزق وقضت عليه
في آخر الأمر . وكان أنتيوخوس الثالث الأكبر رجلا عظيم الكفاية ، حسن
الثقافة ؛ ويظهره تمثاله النصفي المحفوظ في متحف اللوفر رجلا يونانيا -
مقدونيا جمع إلى شجاعة المقدونيين ذكاء اليونان . وقد استعاد بحروبه الطويلة
معظم الأقاليم التي فقدتها الإمبراطورية من أيام سلوقس الأول ، وأنشأ مكتبة
في أنطاكية وناصر الحركة الأدبية التي بلغت ذروتها على يدي مليجر الغزي
Meleager of Gaza في أواخر القرن الثاني . وحافظ هذا العاهل على العادة
اليونانية ؛ عادة استقلال المدن بشؤونها ، وكتب إليها يقول إنه « إذا أمر
بشيء يخالف القوانين ، فعلها ألا تعير أمره التفاتا ، بل يجب أن تفترض أنه
فعل ما فعل عن جهل^(٢) » . ولكنه قضت عليه المطامع المفرطة ، والخيال
القوى ، والعشق العنيف . وهزمه بطليموس الرابع عند رافيا Raphia في عام
٢١٧ ، وبضاعت منه فينيقية ، وسوريا ، وفلسطين . وخفف من وقع هذه
الهزيمة وأعاقها حملته المظفرة إلى بكتريا والهند (٢٠٨) ، وهي الحملة التي
جددت أعمال الإسكندر . وأغراه هنيبال بأن يساعده على رومة فأرسل جيشا
إلى عويبة ؛ وهام وهو في سن الخمسين بحب فتاة حسناء في خلقيس . وأخذ
يغازلها غزلا شريفا ، ثم تزوجها باحتفال عظيم ، ونسى الحرب وقضى فصل
الشتاء يستمتع معها بالسعادة^(٣) . وهزمه الرومان في ترمبيلي ، وطرده
إلى آسية الصغرى ، وهجموا عليه هجوما عنيفا في مجنيزيا . ولم تطاوعه

نفسه على السكون فتوزط في حرب أخرى في بلاد الشرق مات في أثنائها بعد أن حكم ستة وثلاثين عاماً .

وكان ابنه سلوقس الرابع ميالا للسلم ، صرف شئون الدولة بالاقتصاد والحكمة ، واغتيل في عام ١٧٥ ق . م وكان أصغر ابنيه في ذلك الوقت أركونا في أثينة ، حيث ذهب ليدرس الفلسفة . فلما سمع بموت سلوقس ، جمع جيشا زحف به على أنطاكية ، وخلع قاتل أبيه ، واعتلى العرش . وكان أنتيوخوس الرابع أجدر أفراد هذه الأسرة بالاهتمام وأكبرهم أخطاء ؛ ذلك أنه كان مزيجا نادرا من الذكاء والحنون ، والجادبية ، وقد حكم مملكته حكما حازما رغم ما ارتكبه من مئات المظالم والسخافات . فقد أجاز لعماله أن يسيثوا استخدام سلطنتهم ، وأطلق يد عشيقته في ثلاث مدن ؛ وكان كريما وقاسيا لا يعتمد في أحكامه على عقل ، يحكم ويصفح عن هوى ، ويقاضى البسطاء من أفراد الشعب ؛ بالهدايا القيمة ، ويلقى بالنقود على رؤوس الجماهير في الشوارع كما يفعل الأطفال المنتشون . وكان يحب الخمر والنساء والفنون ؛ يفرط في الشراب ، ويقوم من مجلسه في اللوآثم ليرقص عاريا مع أضيافه ، أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب . وكان رجلا لإباحيا شاءت الأقدار أن تحقق له ما كان يعلم به من سلطان . كان يحتقر وقار البلاط وزخرفه ، ويمزح مزاحاً عملياً مع كبار رجال الدولة ، ويتخفى ليستمتع بما يهينه التخلي من الترف . وكان يسره أن يختلط بأفراد الشعب ليتعرف مايقولونه عن الملك ، وأن يتجول في أماكن الفنانين ليدرس أعمال الحفارين والصياغ ويناقشهم في التفاصيل الفنية لصناعتهم . وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون والأفكار اليونانية . وبفضله ظلت أنطاكية مائة عام كاماة مركز الفنون في العالم اليوناني ؛ وكان وجوده بالمال بسخاء على الفنانين لينحتوا التماثيل ويشيدوا المعابد في غير أنطاكية من مدن هلاس ، فأعاد تزيين ضريح أبلو في ديوس ، وشاد دار تمثيل لتيجيا ، وتبرع بالأموال اللازمة لإتمام الأولمبيوم في أثينة . وإذا كان

قد قضى في رومة أربعة عشر عاما وهو في سن يكون فيها المرء سريع التأثر بما حوله ، فقد تشرب فيها بحب الأنظمة الجمهورية ؛ وكأنما أراد أن يستبق عهد أغسطس ، فكان يسره ويوائم مزاجه وسياسته أن يخضع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية . وكان أهم آثار هيامه بكل ما هو روماني أن أدخل ألعاب المحالدين في أنطاكية عاصمة ملكه . واستاء الشعب من هذه الألعاب الوحشية ، ولكن أنتيوخوس استرضاه بما أقام له من الاستعراضات الفخمة الرائجة وما أنفق عليها من أموال طائلة ؛ فلما أن ألف الشعب مظاهر التقتيل عد انحطاطه هذا نصراً له . وكان من مميزاته أنه بدأ حياته رواقياً شديد التحمس للرواقية ، ثم اختتمها بعد أن تحول في غير عناء إلى الأبيقورية . وكان يستمتع بصفاته هذه استمتاعاً بلغ من قدره أن نقش على النقود التي ضربت في أيامه «أنتيوخوس الإله البين Antiochus Iheos Epiphanes» . ولما أن عدا طوره كما يفعل أمثاله من ذوى الخيال ، حاول في عام ١٦٩ أن يفتح مصر . وكاد يتم له ما أراد لولا أن أمرته رومة ، وكانت هي الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، أن ينسحب من أرض إفريقية بأجمعها . وطلب أنتيوخوس أن يتاح له بعض الوقت ليفكر في أمره ، ولكن پوبليوس رسول رومة رسم في الرمل دائرة حول أنتيوخوس وأمره أن يقطع برأى قبل أن يجتاز محيطها . فاستسلم وهو غاضب ناثراً ، ونهب هيكل أورشليم ليسترد ما أنفق في حملته من الأموال ، طلب المجد كما طلبه أبوه من قبل في شن الحرب على القبائل الشرقية ، ومات في فارس وهو في طريقه إلى هذه القبائل من الصرع والجنون والمرض (٥) .



(شكل ٤٩) أليكسيونوس ، نسخة رومانية عن ليسبوس (٢)
(متحف الفاتيكان برومة)

الفصل الثاني

الحضارة السلوقية

لقد كانت مهمة الدولة السلوقية في التاريخ أن تهب الشرق الأدنى الاستقرار الاقتصادي والنظام السياسي ، اللذين وهبتهما إياه فارس قبل الإسكندر ، واللذين أعادتهما إليه رومة بعد قيصر . ولقد أدت في واقع الأمر هذه المهمة رغم ما ينتاب أحوال البشر من حروب وثورات ونهب وفساد . ذلك أن الفتوح المقدونية قد حطمت ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الأمم ، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلًا أتم مما كان بينهما من قبل ؛ وكانت نتيجة هذا أن بعثت الحياة في بلاد آسية اليونانية بعثًا باهرًا جديدًا . فبينما كان الانقسام والنزاع وجذب التربة وتحول الطرق التجارية يقضى على بلاد اليونان الأصلية ، كانت الوحدة والسلام اللتان احتفظ بهما الأباطرة السلوقيون ذواتي أثر عظيم في تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة . ولم تعد مدن آسية اليونانية حرة في إشعال نار الثورات أو التجارب في أساليب الحكم ؛ بل أرغمها الملوك على أن تأتلف . حتى أصبح الائتلاف لما يعيد في هذه المدن (٦) ، وكانت نتيجة هذا أن ازدهرت من جديد مدن قديمة مثل ميليطس ، وإفسوس ، وأزمير .

وكانت أودية دجلة والفرات ، والأردن ، والعاصى . وهيندر ، وهاليس ، وجيحون خصبية إلى حد لا يستطیع خيالنا أن يتصوره الآن لما يثقله من مناظر الصحارى ، والقفار الصخرية التي تغطي أمتاعا واسعة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن ظلت ألنى عام كاملة معرضة لعوامل التعرية ، ولتقطيع الغابات وإهمال الأهليين حرثها وزرعها (٧) . وكانت الأرض في أيام تلك الإمبراطورية ترويهما

شبكة من القنوات تشرف عليها الدولة. وتعنى بأمرها . وكانت وقتئذ ملكا للملوك أو النبلاء من رجال حاشته ، أو للمدن ، أو الهياكل ، أو الأفراد . وكان الأقتان هم الذين يزرعونها في جميع هذه الأحوال وينتقلون معها إذا ما أورثت أو بيعت . وكانت الحكومة تعد كل ما تحتويه الأرض من ثروة ملكا قوميا^(٨) ، لكنها قلما كانت تعنى باستغلالها . وقد بلغت الحرف وقتئذ ، والمدن نفسها ، درجة عظيمة من التخصص ؛ فكانت ميليطس مثلا مركزا هاما لصناعة النسيج ، وكانت أنطاكية تستورد المواد الغفل وتحملها إلى بضائع مصنوعة ، وبلغت بعض المصانع الكبرى التي تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة^(٩) . ولكن الاستهلاك المحلي لم يجار الإنتاج ، لأن فقر الأهلين لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تشجع الصناعات الكبرى .

وكانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنسي ، فهي التي أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، واستخدمت نسبة متزايدة من السكان الآخذين في الازدياد . وحل التعامل بالنقد في ذلك الوقت محل المقايضة التي ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل لم تقض عليها نقود كرووسس .. لكنها وقتئذ كادت تختفي اختفاء تاما من تلك البلاد ؛ فقد أصدرت مصر ، ورووس ، وسلوقية ، وبرجموم ، وغيرهما من الحكومات نقودا بلغت من الاستقرار والتشابه حدا يكفي لتيسير التجارة الدولية . وكانت المصارف تيسر وسائل الائتمان الفردي والعام . وكانت السفن كبيرة تتراوح سرعتها بين أربعة أميال بحرية وستة أميال في الساعة ، وكان لما فضل تقصير المسافات بعد أن استطاعت السير في عرض البحار . وفي البر عنى السلوقيون بالطرق الكبرى التي ورثتها بلاد الشرق عن فارس ، وأكثروا منها ، وزادوا في أطوالها . وكانت طرق القوافل الممتدة من أطراف آسية الصغرى تلتقي في سلوقية ثم تنفرع منها إلى دمشق ، وبريتس (بيروت) وأنطاكية . وأثرت سلوقية من هذه التجارة الواسعة ،

وعمت على إنمائها ، فقامت أحياء غاصبة بالسكان فيها وفي بابل : وصور ،
وطرسوس ، وزانثوس ، ورودمس ، وهليكرنسس ، وميايطس ، وإفسوس ،
وأزمير ، وبرجوم ، وبيزنطية ، وسزيكوسCyzicus ، وأپاميا Apamea ،
وهرقلية ، وأمسون Amisus ، وسينوب ، وبنتيكبيوم Banticapaeum ،
وألبياء Albia ، ولسماكيا Lysimacheia ، وأبيدوس ، وثلونيكيا (سلونيكيا) ،
وخلقيس ، ودياوس ، وكورنثة ، وأبراشيا Ambracia ، وإيدامنوس Epidamnus
(درازو الحالية) ، وتراس ، ونيبوليس Neapolis (نايلي) ورومة ، ومساليا ،
وإمپوريوم Emporium ، وبنورموس Banormus (پالمو) ، وسرقوسة ،
ويوتيكيا Utica ، وقرطاجة ، وقوريني Cyrene والإسكندرية . وكانت شبكة
ناشطة من طرق التجارة ربط أسبانيا في عهد قرطاجة برومة ؛ وقرطاجة في
أيام هملكار وسرقوسة في عهد هيرون الثاني برومة أيام آل سيبو ؛ ومقدونية
في عهد الأنتجونيين ، وبلاد اليونان في عهد العصب المتحالفة ، ومصر في عهد
البطالمة ، والشرق الأدنى في عهد السلوقيين ، والهند في عهد آل موريا Maurya
والصين في عهد أسرة هان . وكانت الطرق الآتية من بلاد الصين تخترق
التركستان ، وبكتريا ، وفارس ، أو تجتاز بحر أرال والبحر الأسود وبحر
قزوين . أما الطرق الآتية من الهند فكانت تجتاز أفغانستان وفارس إلى سلوقية
أو تخترق بلاد العرب والبراء إلى أورشليم ودمشق ، أو تعبر المحيط الهندي إلى
أدانا (عدن) ثم تجتاز البحر الأحمر إلى أرسطوى (السويس الحالية) ، ومنها
إلى الإسكندرية . ومن أجل الإشراف على هذين الطريقين الآخرين اشتبك
السلوقيون والبطالمة في «الحروب السورية» التي أضعفتها جميعاً آثر الأمر
ضعفاً أخضعهما إلى رومة .

وورثت الملكية السلوقية التقاليد الآسيوية فكانت ملكية مطلقة ، لا تحد
من سلطتها جمعية شعبية . وقد نظم بلاط الملك على الطراز الشرق فكان فيه

رجال التشریفات ذوو الملابس المزركشة ، والخصبان ، والحلل الرسمية ، والبحور والموسیقی ؛ ولم یبق فیہ شیء یونانی عدا الكلام والملابس الداخلية . ولم یكن الأشراف فیها زعماء شبه مستقلین كما كانت الحال فی مقدونية و فی أوروبا فی العصور الوسطی ، بل كانوا موظفین إداریین أو عسکریین بعینهم الملوك . وهذا النظام الملكي هو الذى انتقل من بلاد الفرس عن طریق السلوقیین والساسانیین إلى رومة فی عهد ذقلدیانوس ، ویزنطیة فی عهد قسطنطین . وكان السلوقیون یعرفون أن سلطاتهم فی هذا الحیط الأجنبي إنما یعتمد علی ولاء السكان یونان ، ولهذا بذلوا كل ما یستطیعون من جهد لإعادة المدن یونانية القديمة وإنشاء مدن أخرى جديدة ؛ فأنشأ سلوقس الأول تسع مدن باسم سلوقیة وستاً باسم أنطاکیة وخمساً باسم لأودینسیا ، وثلاثاً باسم آپامیا ، وواحدة باسم استرتونیس Stratonice ، وحذا خلفاؤه حذوه بقدر ما وسعته جهودهم الی كانت أقل من جهوده . ونمت هذه المدن وتضاعف عددها كما حدث فی أمريكا فی القرن التاسع عشر .

وعن طریقهم أخذ غربی آسیة یصطبغ بالصبغة یونانية بخطی سریعة فی ظاهر الأمر . ولا حاجة إلى القول بأن هذه العملية كانت قديمة العهد ، فقد بدأت فی أيام الهجرة الكبرى ، وكان الانتشار الهلنستی من بعض نواحيه هو نهضة آیونیا من جدید وعودة الحضارة یونانية إلى مواطنها الآسیوية القديمة ، ولقد كان یونان حتی قبل الإسكندر یشغلون مناصب رفیعة فی الإمبراطورية الفارسیة ، كما كان التجار یونان ینیطرون علی المسالك التجارية فی الشرق الأدنى القریب . أما الآن فإن الفرص السیاسیة والتجاریة والفنیة قد اجتذبت سیلاً جارفاً من المهاجرین المغامرین ، والمستعمرین والكتبة ، والحند والتجار ، والأطباء ، والعلماء ، والسراری . وكان المثالون والحفارون یونان ینحتون التماثل وینقشون النقود للملوك فینیقیة ، ولیشیا ، وكاریا ، وصقلیة ، وبكتریا .

وهرعت الرقصات اليونانيات إلى الثغور الآسيوية^(١٠) ، وغشى القباد الخلقى
الحنسى ستار يونانى ظريف ، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية
وساحاتها فى بعض الشرقيين شغفاً لم يألفوه من قبل بالألعاب والجمامات.
فأنشأت المدن طرقاً جديدة تدمها بالماء ونظماً جديدة لصرف الأقدار ، ورصفت
الطرق ونظفت . ونشطت المدارس ، ودور الكتب ، والتمثيل والقراءة
والأدب ؛ وكان طلاب العلم فى الكليات والجمامات يطوفون بشوارع المدن
يحتاج بعضهم بعضاً ، أو يحتاجون الناس كما كانوا يفعلون فى العهد القديم ؛
ولم يكن أحد يحسب من المثقفين إلا إذا كان يفهم اللغة اليونانية ، ويستطيع
الاستمتاع بمسرحيات مناندر ، ويورپديز . وكانت سيطرة الحضارة اليونانية
على بلاد الشرق الأدنى من أغرب الظواهر فى التاريخ القديم ؛ ولم تر آسية
من قبل مثل هذا التبديل السريع الواسع المدى . غير أننا لانعرف من تفاصيله
وأثاره إلا النزر اليسير ؛ ذلك أن ما وصلنا من المعلومات عن آداب آسية
السلوقية ، وفلسفتها ، وعلومها نجد ضئيل ، وإذا لم نجد فيه إلا عدداً قليلاً
من الشخصيات الجبارة أمثال زينون الرواقى ، وسلوقس الفلكى ، وفى العهد
الرومانى مليجر الشاعر ، وبسپديس الذى كان يلم بكثير من العلوم المختلفة ،
إذا لم نجد إلا هذا العدد القليل فلنا لانستطيع أن نجزم أنه لم يكن هناك كثيرون
غيرهم . والحق أن هذه الثقافة كانت ثقافة مزدهرة ، ذات ألوان متعددة ،
رقيقة مهيبة ، متحمسة ، لانقل خصباً فى الفنون عن أية ثقافة سبقها . ومبلغ
علمنا أنه لم توجد قبلها ثقافة تضارعها فى سعة انتشارها وفى وحدتها المعقدة
بين ماكان يحيط بها من بيئات متباينة . وقصارى القول أن غرب آسية ظل
مدى قرن من الزمان تابعاً لأوروبا ، وأن السبيل قد مهدت للسلام الرومانى
والتآلف المسيحى الجماع الشامل .

ولكن هذا لايعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، فقد كانت خصائصه
متأصلة فيه قديمة العهد ، ولم يكن من اليسير أن يسلم روحه إلى الغرب أياً كانت

قوته . لهذا ظلت حمرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية ، وتجرى على سننها وأساليبها المألوفة من قديم الزمان ، وتعبد الآلهة التي كان يعبدها آباؤها وأجدادها ؛ وكان انغشاء اليوناني الذي يغطي البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط رقيةاً ، وكانت المراكز الهلنيتية القائمة في هذه الأصقاع أمثال سلوقية على نهر دجلة جزائر يونانية في البحر الشرقى . ولم تمزج في هذه الأصقاع الأجناس والثقافات الامتزاج الذى كان يحلم به الإسكندر ؛ بل كان من فوق سطحه يونان وحضارة يونانية ، من تحتها خليط من الشعوب والثقافات الشرقية ، ولم تدخل الصفات الذهنية اليونانية في العقل الشرقى ؛ ولم تحدث ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للجديد ، وحرص على الشؤون الدنيوية ، ورغبة شديدة في الكمال ، والتعبير عن الذات والزعة الفردية القوية ، لم يحدث هذا كله تغييراً ما في أخلاق الشرقيين . بل حدث عكس هذا ، حدث على مر الأيام أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية من أسفل وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب فكانت هي التي بدلت العالم «الوثني» . ففي بابل استعاد التاجر السامى ومصّر³ في الهيكل الصابران سيطرتهما على الهلنى المتقلب الفرّار ، فاحتفظا بالكتابة المسماية ، وأنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية في عالم الأعمال ؛ وأفسد التنجيم ، والكيمياء الكاذبة ، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية ، وأثبتت الملكية المطلقة الشرقية أنها أقوى من الديمقراطية اليونانية ، وانتهى الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه ، فأصبح الملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا في بلاد الشرق ، وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التي كانت تسود بلاد الشرق إلى أوروبا الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية .

وبث الشرق عن طريق زينون نزعته التجريدية والجزرية في الفلسفة اليونانية ، كما سرى تصوفه وتفواه من ميثاق السبل إلى الفراغ الذي تركه تدهور

الدين اليونانى السليم . وسرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ورأوا أنهم فى جوهرهم آلهتهم هم ؛ ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر يؤمن بالآلهة كما كان يؤمن بها الشرق ، ولهذا بقى الإله الشرقى ومات الإله اليونانى ، فعادت أرميس الإفيزية كما كانت إلهة شرقية للأمم ، ذات اثنى عشر ثديا ، واستسلم عدد عظيم من غزاة اليونان لطقوس الدينية البابلية ، والفينيقية . والسورية . وقصارى القول أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وأن الشرق عرض على اليونان الدين ، كانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما الدين فكان سلوى للكثيرين . واستعاد الدين سلطانه فى هذا التبادل التاريخى المضطرب بين الإيمان والكفر ؛ والزعة التصوفية والزعة الطبيعية ؛ والدين والعلم ؛ وذلك لأن الدين أدرك ما ينطوى عليه الإنسان من ضعف وعزلة ، وبعث فيه الإلهام والشعر . وقد سر العالم الذى زالت عن أعينه غشاوة الخداع ، العالم المستقل ، الذى سُم الحروب ، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل . وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى اصطباغ الروح الأوربية بالصبغة الشرقية .

الفصل الثالث

برجموم

لقد كان امتصاص آسية لليونان امتصاصاً تدريجياً سبباً في ضعف قوة الدولة السلوقية ، ونشأة ممالك مستقلة على أطراف العالم الهلنستي . فقد أقامت منذ عام ٢٨٠ بلاد أرمينية ، وكپدوكيا ونيقس ، وبيثينيا ممالك مطلقة مستقلة ؛ ولم تلبث المدن اليونانية القائمة على شواطئ البحر الأسود أن خضعت لحكم الأسويين . وانفصلت بكتريا وسجديانا من حكم السلوقيين حوالي عام ٢٥٠ ؛ وفي عام ٢٤٧ اغتال أرسسيزعيم البارني Parni - وهي قبيلة إيرانية بدوية - حاكم بلاد الفرس السلوقي ، وأنشأ مملكة پارثيا التي قدر لها أن تنازع رومة سلطانها عدة قرون ؛ وفي عام ٢٨٢ استولى فلايتروس Philataerus على تسعة آلاف وزنة من الملك ، وكان لسمخوس Lysemachus قد ائتمنه عليها ، كما استولى على تل برجموم الحصين في آسية وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية . وضم ابن أخيه أمينز الأول Eumenes الأول إلى ملكة پيتاني Pitane وأترنيوس Atarneus وجعل برجموم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (٢٦٢) . وكان لأتلولس الأول Aitalus فضل كبير على آسية اليونانية لأنه صد عنها الغالين الذين اخترقوا هذه الأضقاع حتى وصلوا إلى أسوار مدينته (٢٣٠) ؛ وواصل أمينز الثاني أكبر أبنائه حكم أبيه الحازم ، ولكنه أثار دهشة اليونان بأن استغاث برومة لتحميه من أنتيوخوس الثاني ؛ وبعد أن هزم بمعونتها أنتيوخوس عند مجنيزيا ترك له الرومان جميع بلاد آسية الصغرى تقريبا ، وخلفه على العرش أخوه أتلولس الثاني ، وكان يرتاب في مقدرة أبنائه على أن يحتفظوا بجزيرة برجموم ، فأوصى بملكته وهو على فراش الموت (١٣٩) إلى رومة .

وبذلت الدولة الصغيرة كل ما في وسعها لتكفر عما أحاط بمولدها ونشأتها من غدر وخيانة ، فأخذت تنافس الإسكندرية بوصفها مركزاً للعلم والفن ؛ فلم تنفق كل ما عاد عليها من خيرات المناجم ، والكروم ، وحقول الغلال ، ومن نسيج الصوف وصناعة رقائق الجلد والطور ، والآجر والقرميد ، ومن سيطرتها على تجارة بحر إيجه ، نقول إنها لم تنفق كل ما عاد عليها من هذا في إنشاء جيش وأسطول قويين بل أنفقت جانباً كبيراً منه في تشجيع الأدب والفن ؛ ذلك أن ملوك برجموم كانوا يؤمنون بأن الحكم والأعمال التجارية والمالية الخاصة تستطيعان أن تنافسا تنافساً يوثق خيرات الثروات ، وأن تقضيا على كثير من أسباب العجز والشره . فقد كان الملك يستخدم العبيد في زرع مساحات واسعة من الأرضين ، ويدير كثيراً من المصانع ، والمحاجر والمناجم ، وإن لم يكن ذلك بطريق الاحتكار . وبهذه الطريقة الفذة ازدادت الثروة وتضاعفت ، وأضحت برجموم حاضرة مزخرفة ، اشتهرت بمذبح زيوس ، وبقصورها الفخمة ، وبمكتبتها الجامعة ، ودار تمثيلها العظيمة ، وربما كان فيها من ساحات رياضية وحمامات ؛ بل إن ما كان فيها من دورات مياه عامة ليشهد بفضيل إدارتها البلدية^(١١) . ولم تكن مكتبتها الجامعة يفوقها في عدد مجلداتها ، وفي شهرة علماءها الواسعة إلا مكتبة الإسكندرية وعدها ، وكان معرض صورها يحتوي على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون ليستمتعوا بنجالتها . وظلت برجموم خمسين عاماً أنضرت زهرة في الحضارة الهلينية .

وكان بيت سلوقس في هذه الأثناء آخذاً في الاضمحلال والبقاء . ذلك أن قيام الممالك المستقلة في أنحاء الإمبراطورية السلوقية كان يقصر سلطان الملوك السلوقيين على سوريا وبلاد الجزيرة . وأخذت بارثيا وبرجموم ، ومصر ، ورومة تعمل جاهدة في صبر وأناة لإضعاف هذه الأسرة ، يساعدها على هذا

المدعون الذين كانوا يطالبون بعرش البلاد كلما انتقل هذا العرش من ملك إلى ملك، كما تساعدها الجزازات والانشقاق والحرب الأهلية . وبينما كان دمتریوس الأول يعيد القوة والنشاط للحكومة السلوقية ، إذ جيشت رومة في عام ١٥٣ جيشاً من مرتزقة الخند جاءت بهم من كافة الأنحاء لتأييد مغامر من أهل أزمير في مطالبته الباطلة بعرش البلاد . وانضمت برجموم ومصر في الهجوم على دمتریوس ، فقاوم هذا الملك جيوش أعدائه مقاومة الأبطال ، وخر صريعاً ميدان القتال ، وآلت سلطة السلوقيين إلى يدي رجل حقير خامل يدعى ألكسندر بالاس Alexander Balas ، كان العوبة في أيدي عشيقاته ورومة .

الفصل الرابع

الهلبية واليهود

يدور تاريخ بلاد اليهود في العصر الهلنستي حول نزاعين : الكفاح الخارجى بين آسية السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على فلسطين ، والكفاح الداخلى بين أساليب الحياة الهلنية والعبرية . فأما الكفاح الأول فهو تاريخ ميت ، وفي وسعنا أن نفرغ منه في عبارات موجزة ، وأما الكفاح الثانى فهو في اعتقاد ماثيو آرنلد Mathew Arnold أحد الانشقاقات الخالدة التى طرأت على الأفكار والمشاعر البشرية . وكانت بلاد اليهود (أى فلسطين الواقعة جنوب السامرة) في التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس ؛ ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدمشق وأورشليم . وانتصر بطليموس في الحروب التى ثارت بسبب هذا النزاع ، واستولى على بلاد اليهود وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مائة عام (٣١٨ -- ١٩٨) ، كانت تؤدى في خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة ، ولكنها ازدهرت وعمها الرخاء رغم هذا العبء الثقيل . وقد ترك البطالمة لبلاد اليهود قسما كبيرا من الحكم الداخلى ، تحت سلطان كاهن أورشليم الأكبر والجمعية الوطنية الكبرى . وأضحت الجروسيا أو مجلس الكبار ، التى أنشأها عزرا ونحميا قبل ذلك العهد بمائتى عام ، مجلس شيوخ ومحكمة عليا في وقت واحد . وكان أعضاؤها السبعون أو الأكثر من السبعين يختارون من بين رؤساء الأسر الشهيرة في البلاد ، ومن بين أكبر رجال العلم (السفريم Soferim) . وقد ظلت قرارات هذه الجمعية المعروفة

باسم « الدبرسفرىم » Dibre Soferim أساس الدين اليهودى العام من العصر
المهلستى إلى العصر الحديث .

وكان أساس اليهودية هو الدين : كما كانت فكرة وجود إله قادر تسيطر
على كل ناحية من نواحي الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها . وكان مجلس
الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها . ويشرف
على تنفيذها إشرافا تاما . وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة محدودة ،
وكان الزواج بغير اليهود محرما ، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال . ومن ثم كان
اليهود يلدون كثيرا ويربون جميع أبنائهم ، وظلوا طوال العصور القديمة
يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم فى الإمبراطورية الرومانية
أيام قيصر سبعة ملايين . وكان معظم السكان قبل العهد المقدونى يشتغلون
بالزراعة ، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعض أمة من التجار . وقد
كتب عنهم يوسفوس Josephus فى ذلك العهد المتأخر ، وهو القرن الأول
بعد الميلاد ، يقول : « لسنا شعبا تجاريا (١٣) » . أما الشعوب التجارية العظيمة
فى ذلك العصر فهى الفينيقيون والعرب واليونان . وكان الرق موجودا فى بلاد
اليهود كما كان فى غيره من الأقطار ، غير أن حرب الطلقات كانت هادئة
نسبياً . ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى فقد كانت راقية مزدهرة .
وكان الناي والطبل ، والصنوج و « قرن الكباش » أو البوق . والقيثارة ،
تستخدم مصاحبة للصوت الواحد ، أو للأغاني الشعبية ، أو الترانيم الدينية .
وكان الدين اليهودى يعينب على الطقوس اليونانية استرسالها فى الخضوع لحيال
الشعب ويزدرىها لهذا السبب ؛ وكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الصور ،
والنبوءات ، ومعرفة الغيب بالنظر فى أحشاء الطير ؛ وكان أقل تجسيدا ،
وتخريفاً ، وأقل بهرجة ومرحا من دين اليونان . وكان الربانيون يواجهون
طقوس الشرك المملنية بإنشاد هذه النعمة التى لإتزال تردد حتى اليوم فى كل
كنيس يهودى : « استمعى يا إسرائيل : الرب إلهنا ، الرب واحد » .

وأدخل الغزاة اليونان في هذه الحياة البسيطة المترتبة كل بما في الحضارة
المهذبة الأبيقورية من أسباب اللهو والغواية . وقد كان يحيط ببلاد اليهود حلقة
من المستقرات والمدن اليونانية : السامرة ، ونيوبوليس ، وغزة ، وعسقلان ،
وأزوتس Azotus (أشروذ) وجبا Joppa (بافا) ، وأبولونيا Appollonia ،
ودوريس Dorisa ، وسكينا Sycamina ، وپوليس Polis (حيفا) وأكو (عكا) .
وكان على الضفة الأخرى من نهر الأردن عصابة من عشر مدن يونانية : هي دمشق ،
وجدارا Gadara ، وچراسا Gerasa ، وديوم Dium ، وفلدلفيا ، وپلا Pella ،
ورافيا Raphia ، وپو Hippo ، واسكيتو پوليس Scythopolis ، وكنيثا Canetha .
وكانت تقوم في كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وهياكل
للآلهة والإلهات اليونانية ، ومدارس ، ومجامع علمية ، ومدارس وساحات
للألعاب الرياضية ، وألعاب يشترك فيها الناس وهم عراة . وأقبل على أورشليم
من هذه المدن ومن الإسكندرية ، وأنطاكية ، وديلوس ، ورودس يونانك
ويهود يحملون العدوى الهلينية ، عدوى التبخر في العلم والفلسفة ، والفن ،
والأدب ، والاستمتاع بالجمال واللذة ، والغناء ، والرقص ، والشراب ،
والطعام ، والألعاب الرياضية ، والعشيقات ، والغلمان ؛ فضلا عن السفسة
المرحة ، التي ترتاب في جميع القوانين الأخلاقية ، والتشكك الذي قضى على
كل عقيدة في خوارق الطبيعة . وهل يستطيع الشاب اليهودي أن يقاوم
هذه المغريات ، التي تدعوه إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف
القيود الضيقة الثقيلة ؟ لقد بدأ الشبان اليهود الفكهون يسخرون من الكهنة
ويصفونهم بأنهم طلاب مال ، كما يصفون الأتقياء من أتباعهم بأنهم حتى ،
ينتحلرون إلى الشيخوخة من غير أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة .
وانضم إليهم في هذا أغنياء اليهود ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يستجيبوا للداعي
الغواية . وأحس اليهود الذين كانوا يطلبون المناصب من الموظفين اليونان بأن من

حسن السياسة أن يتكلموا اللغة اليونانية ، وأن يعيشوا كما يعيش اليونان ، بل أن يقولوا بضع كلمات طيبة في حق الآلهة اليونانية .

وكانت ثلاث قوى تسمى اليهود من هذا الهجوم القوي على عقلمهم وحواسهم : هي ما وقع عليهم من الاضطهاد أيام أنتيوخوس الرابع ، وحماية رومة ، وسلطان القانون وهيئته لأنه كان في اعتقاد اليهود وحيا منزلا من عند الله . وتجمع الأتقياء من اليهود ، كما تتجمع الكرات البيضاء في الدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض ، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم « المتقين » . وبدأت هذه الجماعة (حوالي عام ٣٠٠ ق . م) بعهد بسيط . قلدوا به أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب الخمر زمنا معينا ؛ ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزم ، فحوموا جميع الملاذ وعدوها استسلاما للشيطان واليونان . وعجب منهم اليونان أشد العجب وضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيبين الذين التفت بهم جيوش الإسكندر في بلاد الهند . وحتى اليهودى العادى نفسه كان يعارض في تزم نخاعة المتقين الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزم والإباحة ، ولعله هو وأمثاله كان يستطيع أن يجد هذا الحل الوسط لولا أن أنتيوخوس إيفانيز حاول أن يقحم الهلنية في بلاد اليهود بالإقناع تارة وبالسيف تارة أخرى .

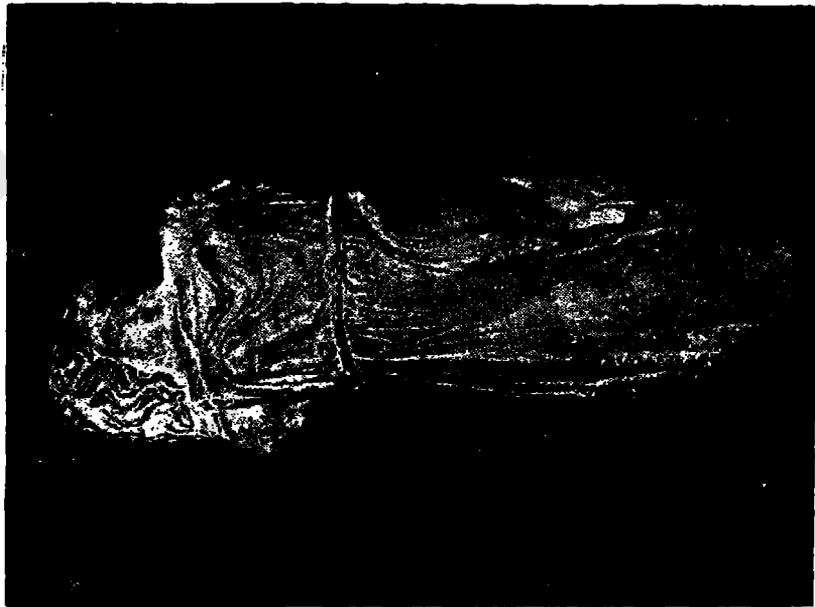
وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ حين هزم أنتيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية . وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا أنتيوخوس ورجعوا باستيلائه على أورشليم وتحريرهم من حكمهم ؛ ولكن خلفه أنتيوخوس الرابع لم يرفى بلاد اليهود إلا أنها مصدر للإيراد ؛ وكان وقتئذ يستعد لحروب عوان تتطلب الكثير من الأموال ، فأمر اليهود أن يودوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة (١٤) . ثم عين جيسن المعروف بتذله وملكه حاخاماً

أكبر ، وتجاهل في هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الديني . وكان جيسن هذا يمثل الحزب القائم في اورشليم والذي ينادى بفرض الثقافة الهلنكية على بلاد اليهود ، ويطلب الإذن بإقامة النظم اليونانية في تلك البلاد . وأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه وهو فرح مستبشر لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية في بلاد آسية اليونانية وقوة هذه الطقوس كانا يقلقان باله إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة اللغات والأجناس بإخضاعها كلها لشريعة واحدة وعقيدة واحدة . ولما أن أبطأ جيسن في العمل للوصول إلى هذه الغاية عين أنتيوخوس بدلا منه منلوس ، بعد أن وعده بأكثر مما وعده به سلفه ونفحه برشوة أكبر (١٥) . وتوحد يهوه وزيوس على يدي منلوس ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرايين إلى الآلهة الهلنكية . وافتتحت في اورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة في الألعاب الرياضية . وبلغ من تحمس بعض شبان اليهود للهلنكية أن تحملوا جراحات في أجسامهم ليعالجوا بها بعض العيوب التي قد تكشف عن أصلهم (١٦) .

وارتفعت كثرة الشعب اليهودي من هذه التطورات وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه ، فانحازت إلى آراء المتقين ؛ ولما أن طرد پوليبوس (١٦٥) أنتيوخوس الرابع من مصر ، شاع في اورشليم أنه قتل ، فاغتنبت اليهود بالنبا ، وتخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذي كان يدعو إلى الثقافة الهلنكية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أو كفراً . لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم وذل وأصبح فقيراً معدماً ، وقد أيقن أن اليهود كانوا سبباً في هزيمته في مصر وأنهم كانوا ياتمرون ليعيدوا بلادهم إلى البطالة (١٧) ، فعاد إلى اورشليم وذبح آلابا من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر منبحة الذهبى وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزائن الملكية ، وأعاد إلى منلوس سلطته العليا ، وأمر أن يتحف اليهود كلهم

على الرغم منهم بالثقافة الهلينية (١٦٧) ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحاً مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يوناني فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودي في جميع أنحاء بلاد اليهود ، وألزم الأهليون باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام . وكان كل من يأبي من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يشجن أو يقتل ، وأمر أن يحرق هذا الكتاب أفي وجد (١٨) . وأشعلت النار في أورشليم نسمها ، وهدمت أسوارها ، وبيع سكانها اليهود في أسواق الرقيق ، وجرى بالأجانب ليقمنوا في مواضعها ، وشيد حصن جديد على جبل صهيون ، ووضعت فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسم الملك (١٩) . ويبدو أن أنتيوخوس سعى في بعض الأوقات لأن يجعل نفسه لها ، وأنه طلب إلى الناس أن يتخذوه لها يعبدونه (٢٠) .

وزاد الاضطهاد شدة على مر الزمن . ذلك أنه يوجد دائماً في كل مجتمع أقلية فطرت على الابتهاج إذا أذن لها بالاضطهاد ، لأنها ترى في هذا الاضطهاد انطلاقا من قيود الحضارة . وكان عملاء أنتيوخوس من هذه الأقلية ، فإنهم بعد أن قضوا على جميع مظاهر اليهودية في أورشليم انطلقوا اللهب يبحثون عن هذه المظاهر في المدائن والقرى ، وكانوا أينما حلوا ينجرون الأهلين بين الموت والاشترار في العبادات الهلنية زما تتضمنته من أكل لحم الخنازير المذبوحة على النصب (٢١) . وأعاقبت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وعُد جميع من يأبون الاشتغال في يوم السبت عصابة خارجين على القانون . وأرغم اليهود في عيد باخوس أن يزينوا باللبالب كالليونتان أنفسهم ، وأن يشركوا في المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد الحمجية تكريماً لديونيش . وضدخ الكثيرون من اليهود بما أمروا به ، وترقبوا أن تمر بالعاصفة ، وفر كثيرون غيرهم إلى



(شكل ٥٠) الهياكل النحاسية أو الرصاصية ، نسخة رومانية
مستقولة عن أسكويانس (متحف درسدان)



(شكل ٥١) إلهى بنات نيونى (متحف ميلان)

الكهوف أو المعامل الجبلية الثابتة : وعاشوا على ما يمتطونته، تحطنة من الحقول ، وثبتوا على ممارسة أساليب الحياة اليهودية . وأنط « المتقون » يطوفون بهم يدعزهم إلى الشجاعة والمقاومة . وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف آوى إليها آلاف من اليهود - رجال ونساء وأطفال - فأمرهم بالخروج ؛ فلما عصوا أمر الجنود وأبوا كذلك أن يزيلوا ماعساه أن يكون في مداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، أعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختنق الباقون بالدخان (٢٢) . وفي المدن قبض على النساء اللاتي ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين هن وأطفالهن من فوق الأسوار (٢٣) . وما كان أشد دهشة اليونان من استمسك الأهلين بدينهم القديم ، ذلك أنهم لم يروا من عدة قرون مثل هذا الإخلاص للرأى والاستمسك بالعقيدة . وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتملأ بها الكتب ؛ فضربت للمسيحين أمثلة صادقة في الاستشهاد والشهداء . وهكذا أضحت اليهودية دينا وقومية وثبتت قواعدها وتأصلت جذورها وآثرت العزلة لتحتسى بها من أعدائها .

وكان من بين اليهود الذين فروا وقتلوا من أورشليم متاثياس *Mattathias* من أسرة هزموناي *Hasmoni* من سبط هارون - وأبناؤه الخمسة يوهنان كاديس ، وسيمون ، وبوداس ، واليزر ، ويوناثان . ولما أقبل أبلز عامل أنتيوخوس إلى مدين *Modin* التي لجأ إليها هؤلاء الستة ، أمر أهلها أن يجحدوا . « الشريعة » ويقربوا لزيوس . وجاء متاثياس الشيخ ومعه أبناؤه الخمسة وقال : « لو ان جميع سحان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين أبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بعهد آبائنا الأولين » . ولما ان اقرب أحد اليهود من المذبج يقرب قربان المطلوب ذبحه متاثياس بيده وذبح أيضا مندوب الملك . ثم نادى في الشعب قائلا : « من كان يغار على الشريعة ، وأراد

أن يؤيد العهد فليتبغى (٢٤) . فسار وراءه هو وأبنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل لإفرايم . حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان النافرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من « المتقين » .

وبعد قليل من هذا الحادث توفي متاثياس بعد أن أوصى بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه بوداس المعروف باسم مكابي (**). وكان بوداس هذا رجل حرب أوتي من الشجاعة مثل ما أوتي من التقوى . وكان من عاداته قبل أن يخوض أية معركة أن يصلى كما يصلى الأولياء المطهرون ، حتى إذا خاض غمارها « كان كالأسد في سورته » . وكان جيشه الصغير « يعيش في الجبال كما تعيش الوحوش ، ويقنات بالأعشاب » . ثم ينقض من حين إلى حين على لإحدى القرى المحاورة ويقتل المارقين ويهدم مذابح الوثنيين ؛ و« إذا وجدوا أطفالا لم يختنوا أجروا لهم عملية الاختتان بشجاعة (٢٥) » . ونقلت هذه الأنباء إلى أنتيوخوس فسير عليهم جيشاً من السوريين اليونان وأمره أن يهدم حصن المكابيين . والتقى بهم بوداس في ممر إاموس Emmaus وانتصر عليهم نصراً مؤزراً (١٦٦) ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتزة المدربين أحسن تدريب والمسلحين آتم تسليح . بينما كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من السلاح والثياب . وسير أنتيوخوس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليلتاعوا من كان ينتظر أسرهم من اليهود ، ووضع في المدن لوحات بما يطالب فيهم من الأثمان (٢٦) . وهزم بوداس هذا الجيش في مزباح ، وكانت الهزيمة حاسمة سقطت على إثرها أورشليم في قبضته دون مقاومة ؛ فلما دخلها أخرج ما كان في الهيكل من مذابح وزينات وثنية وطهره ودشنته من جديد . وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسبط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المستمسكين بالدين (***) (١٦٤) .

(*) يفسر هذا اللفظ عادة « بالمطرقة » وإن كان هذا التفسير غير موثوق بصحته .
(**) لا تزال ذكرى هذا المولد الجديد من الأعياد التي يحتفل بها في كل بيت يهودي تقريبا .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد به العاصمة ،
شاع بين الجند أن أنتيوخوس قد مات - وكانت هذه الشائعة صادقة في هذه
المرّة (١٦٣) . وأراد ليسياس أن يكون حرا في العمل في غير هذا الميدان
فعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح ؛
فرضى بذلك «المتقون» ورفضه المكابيون ، وأعلن بوداس أن بلاد اليهود لا تأمن
على نفسها من الاضطهاد إلا إذا نالت استقلالها السياسي والديني جميعا . وسكر
المكابيون بخمرة النصر فبدؤوا هم أنفسهم يضطهدون أعداءهم ، وينتقمون
من الحزب المشايخ لليونان في أورشليم وفي المدن المجاورة للحدود (٢٧) ، وفي
عام ١٦١ هزم بوداس نكانور Nicanor عند أداسا Adasa وقوى نفسه بأن عقد
حلفا مع رومة ، ولكنه قتل في تلك السنة نفسها وهو يحارب جيشاً أقوى من
جيشه عند إلسا Elasa وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنه
قتل هو الآخر عند عكا (١٤٣) . ولم يبق بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا
سيمون ، وقد استطاع بمعونة رومة أن ينال من دميريوس الثاني في عام ١٤٢
اعترافا باستقلال بلاد اليهود . وعين سيمون بمرسوم شعبي سائحاً أكبر وقائدا
عسكريا ، وإذ كان هذان المنصبان قد أصبحا وراثيين في هذه الأسرة فقد
أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الهزمونية Hasmonean ، وعدت أول سني
حكمه بداية التاريخ الجديد ، وهدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة